الإمام المجدِّد أبو الحسن الماوردىّ (٣٦٤-٤٥٠هـ) ودوره فى تجديد الفكر الإسلامى وإرساء ثقافة السلام

الأستاذ الدكتور/ صابر عبد الدايم يونس

عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

لجنة إحياء التراث

مصر

لقد نشأ هذا الإمام الجليل فى عصر اشتد فيه الصراع بين السنة والشيعة من جانب، وبين السنة والمعتزلة من جانب آخر، حيث عاش هذا الفقيه المتكلم المفكر فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من القرن الخامس للهجرة، وعلى الرغم من الصراع السياسي، فإن التنافس العلمى والفكرى بين قادة الفكر والعلوم الدينية والمدنية أنتج ثمارًا فكرية ناضجة معتدلة متوازنة نابعة من ثقافة الاعتدال والسلام ونبذ التشدد والإرهاب والتطرف؛ وهذه الآثار العلمية شاركت فى ترسيخ وإعلاء مسيرة الحضارة الإسلامية، وحركات التجديد فى علم الكلام والعلوم الإسلامية والعربية.

فى هذا العصر عاش الإمام "أبو الحسن الماورديّ" وهو كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة: فقيه مدرك، وحكيم ملهم، قد أتاه الله قلبًا مستقيمًا، وتجربة مكنته من إدراك العصر، فقد ركب لجته، وعلا فوق قمته، فبين الطريق للإصلاح من غير أن يُصرح بالدعوة إليه لأن فى ذاته دعوة لهُ، وحث عليه.

وقال الإمام السبكى فى طبقاته عن أبى الحسن الماوردى موضحًا دوره القيادى والعلمى وريادته فى ميادين كثيرة هو الإمام الجليل القدْر، الرفيع المقدار والشأن، صاحب الحلول والإقناع

في الفقه، وأدب الدنيا والدين، والتفسير، ودلائل النبوة، والأحكام السلطانية، وقانون الوزارة، وسياسة الملك؛ وقد أسند إليه القضاء ببلدان كثيرة، وكان رجلاً عظيم القدر مقدمًا عند السلطان.

وقد تنوعت ثقافة أبى الحسن الماوردى تنوعًا أدى به إلى اتساع مدارك التفكير، واتباع الطرق المنهجية والسلمية الحكيمة فى الإقناع والدعوة إلى الله، فقد ولد بالبصرة، وتلقى علومه الأولى بها، وكانت البصرة موئل العربية، وبها علوم النحو والأدب، وبها الطوائف والفرق الإسلامية، ويجرى فيها الجدل بين هذه الطوائف: وهى فوق ذلك ملتقى الأجناس الإسلامية، وتجئ إليها المتاجر من الشرق والغرب، وتجئ منها علوم الهند وإيران.

وقد تلقى "أبو الحسن الماورديّ" العلوم المختلفة على مشايخ البصرة من أصحاب العقول المستنيرة، حيث تلقى علم الكلام على المعتزلة، وعلى الأشاعرة، وتلقى الفقه الشافعى وأصوله، وروى الحديث من حُفَّاظه، وعُنى بالقرآن فهْماً وحفظًا وفقهًا وتفسيرًا"[1].

(١) انظر: الإعلام بأعلام الإسلام، الشيخ محمد أبو زهرة، ص ١٦٦- ٩٧٣.

المحور الأول

بعض معالم اجتهادات الماوردى وتجديده فى الفكر الإسلامى ونشر ثقافة الأمان والسلام

إن الإمام "الماورديّ" تتمثل ريادته وإمامته فى اتساع آفاقه العلمية، ونظراته الإصلاحية، فهو لم يقتصر فى مؤلفاته على القضايا الدينية البحتة، ولكنه عنى أشد العناية بما يُصلح حال الإنسان اجتماعيًا وسياسيًا ودينيًا، ولذلك كتب مؤلفه الذائع الصيت " أدب الدنيا والدين".

ومن معالم إصلاح دنيا الإنسان صلاح الساسة، وقوة السلطان، وعدالة الحكم، ولذلك رأينا هذا العالم الجليل يدرس نظام الحكم فى زمنه حيث عاش فى العصر العباسى الثانى فى دولة بنى بويه، واتخذ منهج المقارنة سببًا للإقناع، فهو يقارن بين نظام الحكم فى عصره، وبين ما يدعو إليه الإسلام، وما يمكن أن يستخلص من الدراسات الفقهية، وما ترشد إليه القواعد الإسلامية التى تتعلق بنظام الحكم فى الإسلام وكتابة الأحكام السلطانية" ثمرة لهذه الدراسة، كما كان كتاباه "قانون الوزارة، وسياسة الملك" ثمرة لهذا المنهج التجديدى والإصلاحى لأبى الحسن الماورديّ.

وسعيًا إلى التجديد والإصلاح، ونشرًا لثقافة السلام ونبذًا للفكر المتشدّد المتطرف، وتحديثًا لآليات الخطاب الدينى كما نقول فى أدبيات الخطاب الحديث، يقول: "اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منظمة، وأمورها ملتئمة ستة أشياء هى قواعدها وإن تفرّعت وهي:

[١] دين مُتَّبع [٢] سلطان قاهر. [٣] عدْل شامل.

[٤] أمن عام. [٥] خصب دائم. [٦] أمل فسيح.

ولنتأمل هذا المعلم الثانى من معالم إصلاح الدنيا وهو سلطان قاهر، وهو لا يقصد بالسلطان القاهر: السلطان الظالم أو الحاكم المستبد؛ لأن السلطان القاهر فى منهج أبى الحسن الماوردى وسياسته الإصلاحية التى ترسى فكرة السلام والوئام هو: الحاكم الذى تتألف برهبته الأهواء المختلفة، وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة وتتكلف بسطوته الأيدى المتغالبة، وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية.

ويعلل الإمام الماوردى هذا التفسير تعليلاً مقنعًا راشدًا متوازنًا حكيمًا، فيقول: " لأن فى طباع الناس من حب المغالبة على ما أثروه، أو القهر لمن عاندوه، ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوى وهذا المانع لا يخلو من أحد أربعة أشياء: "إما عقل زاجر، أو دين حاجز، أو سلطان رادع، أو عَجْز صادّ.

ثم يقول: فإذا تأملنا لم نجد خامسًا يقترن بها، ورهب السلطان أبلغها، لأن العقل والدين ربما كانا مصنوعين، أو بدعيٍّ الهوى مغلوبين، فتكون رهبة السلطان أشد زجرًا، وأقوى ردعًا، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: "إن الله يزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن".

ومما يؤكد منهج الإمام الماوردى المسالم ودوره فى نشر ثقافة السلام بين طوائف الأمة استشهاده بحديث النبى ﷺ يقول: قال أبو هريرة ﷺ : سُبَّت العجم بين رسول الله ﷺ فنهى عن ذلك وقال: "لا تَسبُّوها، أى العجم، فإنها عمرت بلاد الله تعالى، وعاش فيها عبادُ الله تعالى".

وقد حدّد "الماوردي" سبعة معالم يلتزم سلطان الأمة بها حتى ينشر العَدْل والسلام والأمان بين الناس، وهى تعلن عن سياسة رشيدة، ورؤية سديدة لإصلاح المجتمع، والتعايش السلمى بين طوائفه فى كل عصر، وفى كل زمان ومكان.

ولنتأمل هذه المعالم التى حدّدها الماوردى لكى يلتزم بها الحاكم فى كل زمان وفى كل مكان أحدهما: حفظ الدين من تبديل فيه، والحث على العمل به من غير إهمال له.

والثانى: حراسة الثغور، وحماية الأمة من عدو فى الدين أو باغى نفس أو حال.

والثالث: عمارة البلدان باعتماد مصالحها، وتهذيب سبلها ومسالكها.

والرابع: تقدير ما يتولاه من الأموال بسنن الدين من غير تحريف فى أخذها وإعطائها.

والخامس: معاناة المظالم والأحكام بالتسوية بين أهلها واعتماد النصفة فى فصلها.

والسادس: إقامة الحدود (العقوبات) على مستحقها، من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها.

والسابع: اختيار خلفائه فى الأمور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها، والأمانة عليها، فإذا فعل من أفضى إليه سلطان الأمة ما ذكرناه من هذه الأشياء السبعة كان مؤديًا حق الله تعالى فيهم، مستوجبًا طاعتهم ومناصحتهم، مستحقًا صدق ميلهم ومحبتهم.

ومن اجتهادات الإمام "الماوردي" رؤيته الثاقبة لقضية "العدل" وهى القاعدة الثالثة من القواعد التى تصلح الدنيا بها ويرى أن العدل يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان، ويستشهد "الماوردي" بثقافات الأمم الأخرى، وكأنه يدعو إلى الانفتاح الثقافي، والتعايش السلمي، والاستفادة من تجارب الآخرين، وعدم الانغلاق، ونبذ التعصب، والانفتاح المعرفى، وفى هذا السياق يروى "الماوردي" عن الإسكندر الأكبر، أنه قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع بها، صارت سنن بلادكم قليلة. وهو يقصد بالسُّنة: القوانين الموضوعة للفصل بين الناس فى الخصُومات – كما يوضح محقق الكتاب فى هوامشه.

فأجابه الحكماء قائلين ومفسَّرين قلة القوانين فى بلادهم قالوا:

إعطاؤنا الحق من أنفسنا، ولعدل ملوكنا فينا، فقال لهم: أيهم أفضل "العدل أم الشجاعة"؟ قالوا: إذا استعمل العدل أغنى عن الشجاعة، ويؤكد "الماوردي" موضحًا دور العْدل فى إصلاح الأمة ونشر الوئام والسلام، حيث يقول: قال "بعض البلغاء:" إن العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق، ونصبه للحق، فلا تخالفه فى ميزانه، ولا تعارضه فى سلطانه، واستعن على العدل بخلقين، قلة الطمع، وكثرة الورع".

وفلسفة الماوردى فى "قضية العدل" فلسفة واقعية اجتماعية إصلاحية، فالعدل كما يرى إحدى قواعد الدنيا، التى لا انتظام لها إلا به، ولا صلاح فيها إلا معه؛ ولذلك يحدّد رؤيته لهذه القضية فى معلمين رئيسين:

أولهما : أن يبدأ هذا المنهج بعدل الإنسان فى نفسه.

وثانيهما : عدْل الإنسان من غيره.

ويرى أن العدْل فى النفس: هو القدرة على ضبط النفس وكفها عن أهوائها ورغباتها، وكذلك القدرة على التعايش مع الآخرين، والتصالح مع المجتمع انطلاقًا من القاعدة الإسلامية التى أرساها المصطفى ﷺ، فى حديثه الصحيح "لا ضرر ولا ضرار" يقول الماوردي:

فأما عدله فى نفسه: فيكون بحملها على المصالح كلها، وكفها عن القبائح، ثم بالوقوف فى أحوالها على أعدل الأمرين، من تجاوزٍ أو تقصير، فإن التجاوز فيها جور، والتقصير فيها ظلم، ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم، ومن جار عليها فهو لغيره أجور؛ وهذه الرؤية الفكرية والمنهجية للعدْل الذاتى هى خير ترجمان للمنهج الوسطى المعتدل المتوازن الذى ينشئ فى كيان الإنسان ما يمكن أن نطلق عليه السلام النفسى والأمان الذاتى النابع من الإيمان الصافى، وإسلام لوجه الله تعالى.

وأما العدْل مع الغير فيقسمه "الماوردي" إلى ثلاثة أقسام حسب نوعية الآخر وطريقة التعامل معه دون المساس بكرامته، أو الغضّ من شأنه، أو الخوف منه، وهذا التقسيم فيه رؤية واقعية تحرص على التوائم بين فئات المجتمع وطبقاته وإعطاء كل ذى حق حقه... وهذا المنهج من مقومات نَشْر السلام والأمان بين أبناء الأمة الواحدة... فالمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

فالقسم الأول: كما يقول الإمام الماوردى عدْل الإنسان فيمن دونه، كالسلطان فى رعيته، والرئيس مع صحابته، فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء.

باتباع الميسور، وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة، وابتغاء الحق فى السيرة.

ثم يعلل "الماوردي" لكل قاعدة من هذه القواعد التى تصلح الرعية، وتبقى على الحاكم فى مكانته عزيزًا مهابًا، وهذا التعليل يحل كثيرًا من المعضلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكأن هذه القواعد، وتلك التعليلات قوانين دستورية حاكمة فى عبارات موجزة بليغة دالة محكمة تتسع معانيها وتشع دلالاتها بكثير من الرؤى السياسية والاجتماعية التى يمكن الاحتكام إليها فى كل عصر.

يقول "الماوردي" فإن اتباع الميسور أدوم، وحذف المعسور أسلم، وترك التسلط أعطف على المحبة، وابتغاء الحق أبعث على النصرة، ويحذر "الماوردي" أصحاب المسئولية من التخلى عن هذه القواعد، التى تخل بالعدل، وتبدَّد الجهود الإصلاحية، وتقضى على الشعور بالأمان والسلام، فهذه القواعد، وتلك الأمور إن لم تسلم للزعيم المدَّبر – كما يرى الماوردى – كأن الفساد بنظره أكثر، والاختلاف بتدبيره أظهر وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: "أشد الناس عذابًا يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه، فجار فى حكمه"

وأما القسم الثانى للعَدْل مع الغير: فهو "عدْل الإنسان مع من فوقه" كالرعية مع سلطانها، والصحابة مع رئيسها".

وحين نتأمل هذه الوجه من وجوه العدْل – ندرك عُمْق تفكير "الماوردي" واتساع رؤيته، فالعدْل ليس قاصرًا على أصحاب المناصب، والحكام، ولكنه من مسئوليات الشعب، وكل أفراد الأمة وطوائفها من العلماء، والوزراء، والتجار، والعامة، ويحدد "الماوردي" آليات تحقيق العدل مع السلطان والحكام بصفة عامة وهو يتمثل فى ثلاث مقدمات تجسد حسن العلاقة بين الراعى والرعية، وتؤكد أن الحاكم يستمد صلاحياته – ونجاحاته واستمراريته من إخلاص الرعية ومناصحتها له، وهذه المقومات هى: إخلاص الطاعة، وبذل النصرة، وصدق الولاء.

وأسلوب "الماوردي" يتسم بالنزعة المنطقية العقلانية، وحسن التقسيم، والبرهنة والإقناع، وكذلك يدعَّم آراءه السديدة بالاستشهاد بالأحاديث النبوية الشريفة، ثم أقوال الحكماء، والبلغاء العرب ثم أقوال الفلاسفة والحكماء من الفرس والهند وغيرهم من الديانات والملل الوضعية الأخرى، يقول مُعللاً صواب هذه المقومات الداعمة للعلاقة بين الحكام والشعوب: "فإن إخلاص الطاعة أجمع للشمل، وبذل النصرة أدفع للوهن، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن وهذه أمور إذا لم تجمع فى المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه، واضطر إلى اتقاء من كان يقيه؛ وفى استمرار هذا خلل نظام جامع، وفساد صلاح شامل.

وأما القسم الثالث للعدل مع الغير: فهو يكون بين المتساوين "والأكفاء"، ويحـــدد "المـــاوردي" قسمات هذا السلوك الإنسانى بثلاثة ملامح... وهى ترسيخ لثقافة السلام، والتعايش الآمن بين أبناء الوطن الواحد، وطوائف الأمة الواحدة.

وهذه الملامح هى: ترك الاستطالة، ومجانبة الإدلال، وكف الأذى، ويكشف هذا الإمـــام المجـــدِّد عن أسباب هذه المقومات التى تُقيم صروح العدْل والمحبة بين الأكفاء، ويعلل قائلاً: لأن ترك الاستطالة آلف، ومجانبة الإدلال أعْطف، وكف الأذى أنصف؛ ثم يُدلِّل على صحة هذا المنهج بأســـلوب منطقـــى عقلى اتساقًا مع منهجه فى طرْح القضايا – وبعد ذلك يوثق هذه الحجة العقلية بشواهد نقلية من أحاديث المصطفى ﷺ، وأقوال الحكماء والبلغاء، والشعراء من العرب وغيرهم من الأمم والثقافات الأجنبية.

يقول محذِّرًا من عدم تطبيق هذه القواعد، وتلك المعالم – حيث تخبو مصابيح الـــود بيـــنهم، وتنطفئ شعلة السلام والوئام، ويغمرهم النزاع والخصام، والصراع المستم، وهـــذه أمـــور إن لـــم تخلص فى الأكفاء، أسرع فيهم تقاطع الأعداء، ففسدوا وأوقدوا.

وقد روى عن عمر بن عبد العزيز، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: قال رســـول الله ﷺ: "ألا أنبئكم بشرار الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من أكل وَحْده، ومنع رِفْده، وجلَـــد عَبْده، ثم قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال من لا يُرجى خيره، ولا يؤمن شرُّه، ثم قال: ألا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: مَنْ يبغض الناس ويبغضونه".

واتساقًا مع المنهج الوسطى المعتدل، وحرصًا على بث القيم الإيمانية التى تنشر المحبة بـــين الناس، وتغمرهم بالسلام واليقين، يُفَسر "الماوردي" ماهية العَدْل تفسيرًا مرتبطًا بحركـــة المجتمـــع وثقافة المواطنة والتعايش الآمن المسالم، يقول:

وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط فى حالتى التقصير والسرف، لأن العدل مأخوذ من الاعتدال، فما جاوز الاعتدال فهو خروج التقصير عـــن العـــدْل، وقـــد قـــال الحكماء: "الفضائل هيئات متوسطة بين حالتين ناقصتين، وأفعال الخير تتوسط بين رذيلتين، فالحكمة واسطة بين الشر والجهالة، والشجاعة واسطة بين التهور والجبن، والعفة واسطة بين الشر وضعف الشهوة، والسكينة واسطة بين السخط ودفع الغضب، والغيرة واسطة بين الكبـــر ودنـــاءة الـــنفس، والسخاء واسطة بين التبذير والتقتير، والحلم واسطة بين إفراط الغضب وعدمه، والمودة واســـطة بين الخلابة وحسن الخلق"(١).

---

(١) انظر: تفصيل هذه المقومات التى تصلح بها الدنيا ــ فى ضوء فلسفة " المارودى " فـــى كتابـــه " أدب الـــدنيا والدين" من ص ١٨٢ – ١٩٤ .

المحور الثانى

الدعوة إلى أدب العلماء مع السلاطين ومناصحتهم فى صدق وشجاعة

إن العلاقة بين العلماء والحكام من أسسها الاحترام المتبادل، والمناصحة من قبل العلماء للأمراء والحكام فى مودة وتلطف وصدق وشجاعة.

وقد قرر الإسلام مسئولية رجال الحكومة أمام الأمة والعلماء من خلاصة طوائف الأمة – فهم من صفوة العقول والخبرات والمهارات والتجارب والنصح الرشيد للحكام – وهذا كما يقول العلامة الشيخ "عبد الوهاب خلاف" واضح من النصوص التى يتطلب بها من الأمة نصح ولاة الأمر، والأخذ على أيدى ظالميهم، كقوله ﷺ : "**إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا، يرضى لكم أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تتفرقوا، وأن تناصحوا من ولاَّه الله أمركم**".

ويقول الإمام "محمد عبده": إن النصح والشورى لا يتمان إلا بقيام فئة خاصة من الناس تتشاور وتتناصح" إذ ليس فى وسع جمهور الأمة القيام بهما، وإذا كان الواجب المفروض على الحكام والمحكومين لا يتم إلا بوجود هذه الفئة كان تخصيص فريق من الأمة لهذا العمل واجبًا، عملاً بالأصل المتفق عليه "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"(١).

والإمام "الماوردي" يرى أنه لابد من تقريب المسافة بين العلماء والأمراء والسلاطين والحكام بصفة عامة، ولذلك نراه من خلال فكره المستنير، ووعيه السياسيّ، وحسه الاجتماعي، وفقه الواقع لديه، وفهمه لمقاصد الدين، وآليات الخطاب الدينى، يقول: "إن للسلطان حق الطاعة والإعظام، وللعالم حق القبول والإكرام، ثم لا ينبغى أن يبتدئ العالم السلطان لتعليمه إلا بعد الاستدعاء، ولا يزيده على قدر الاكتفاء، فربما أحب بعض العلماء إظهار علمه للسلطان فأكثره، فصار ذلك ذريعة إلى ماله، ومفضيًا إلى بعده، فإن السلطان منقسم الأفكار، مستوعب الزمان، فليس له فى العلم فراغ المنقطعين إليه، ولا خبرة المنفردين به".

وهذا المنهج فى معاملة الحكام، والرؤساء، والملوك، وتعليم السلاطين فيه حرص على استمرار العلاقة السلمية بين العالم والحاكم، حتى تظل الأمة متماسكة، ولكنَّ مراعاة آداب الخطاب فى تعليم السلطان وأولى الأمر بصفة عامة، يجب أن لا تؤدى إلى ممالأة المسئولين والحكام ونفاقهم، والبعد عن تبصيرهم بالوجه الصحيح، والرأى السديد، إذا حدث ما يخالف ثوابت الدين؛

---

(١) انظر: السياسة الشرعية للعلامة الشيخ عبد الوهاب خلاف، ص٤٦ .

ويحذر الماوردى من ذلك قائلاً: "ثم ليحذر العالم اتباع السلطان فيما يجانب الدين، ويضاد الحق، موافقةً لرأيه، ومتابعة لهداه، فربما زلَّت أقدام العلماء فى ذلك رغبة أو رهبة، فضلوا وأضلوا، مع سوء العاقبة، وقبح الآثار".

ومن شواهد الشجاعة فى النصح، والمكاشفة فى القول موقف "عمرو بن عبيد فى حوار بينه وبين الخليفة المنصور وكان واعظًا له وهو: إمام المعْتزلة بعد واصل بن عطاء فقد روى المؤرخون أن عمرو بن عبيد دخل على المنصور يومًا: فقال المنصور له: "عظنى"... فقال: "عمرو بن عبيد"* مخاطبًا المنصور فى صدق وشجاعة وإخلاص: "إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاستر نفسك ببعضها.

واذكر ليلةً تمخَّص عن يوم لا ليلة بعده!!! فوجم المنصور من قوله: فقال له الربيع بن الفضل حاجب المنصْور: "مدير المكتب المسئول بلغة العصر الحديث، يا عمرو: غممتَ أمير المؤمنين!!!.

فقال عمرو مخاطبًا الخليفة "أبى جعفر المنصور":

"إن هذا صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصْحك يومًا واحدًا، وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ قال "أبو جعفر مقدرًا موقف "عمرو بن عبيد" وإخلاصه فى النصيحة: فما أصنع؟ قد قلت لك: خاتمى فى يدك فتعال أنت وأصحابك فاكفني، قال عمرو فى بلاغة وإيجاز وصدق فى النصح: "ادْعُنا بعد لك تسخُ أنفسنا بعونك، ببابك ألف مظلمة أردُدْ منها شيئًا نعلم أنك صادق" (١).

واتباعًا لهذا المنهج يروى "الماوردي" عن الإمام الزاهد "أبى الحسن البصرى أنه قال: " قال رسول الله ﷺ : " لا تزال هذه الأمة بخير تحت يد الله وفى كنفه، ما لم يُمار أو يُمالِ قراؤها أمراءها، ولم يمار أخيارُها أشرارها، فإذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم يده، ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب، وضربهم بالفاقة والفقر، وملأ قلوبهم رعبًا".

والإمام "الماوردي" نفسه كان أنموذجًا للعالم الصادق فى نصيحته للحكام والسلاطين.

ولم يمار أو ينافق واحدًا منهم، وكانت له منزلة كريمة عند الخليفة المقتدر وعند آل بويه كذلك، ومما يبرهن على عدم انقياده للملوك: أن جلال الدولة بن بويه أراد أن يزيد فى ألقابة لقب

---

* عمرو بن عبيد واعظ المنصور، وكان كل خليفة يُعين أحد العلماء الثقات واعظًا له، يُعينه ويعظه ويُعد مستشاره الخاص، وكان هذا العالم الشجاع إمامًا للمعتزلة بعد واصل بن عطاء.

(١) انظر: عيون الأخبار، (٢/ ٣٣٧)، والعصر العباسى الأول د/ شوقى ضيف، ص ٤٥١ .

"شاهنشاه" أى: "ملك الملوك " واختلف فقهاء بغداد فى جواز التلقب بهذا اللقب، فأفتى فريق منهم بجوازه، كالقاضى أبى الطيب الطبرى، ولكن الإمام "الماوردي" أفتى بأنه لا يجوز، وقطع ما كان بينه وبين جلال الدولة من علائق المودة والصداقة، فطلبه "جلال الدولة" وخاطبه فى تقدير واحترام لموقفه الصادق الشجاع قائلاً :"أنا أتحقق أنك لو حابيت أحدًا لحابَيْتي، لما بينى وبينك، ما حملك على موقفك المعارض إلا الدِّين، فزاد بذلك مَحَلَّك عندى[1].

(١) انظر: مقدمة " أدب الدنيا والدين " ص ٢٦ (مقدمة الطبعة الثانية) .

المحور الثالث

منهج الماوردى فى الإصلاح وتجديد الخطاب من خلال كتابه: "أدب الدنيا والدين"

إن هذا الكتاب يُعدُّ وثيقة علمية تشع بالمعارف الفلسفية والاجتماعية والدينية والأدبية، ولكنها ليست جمعًا لآراء متفرقة، وليست أقوالاً متناثرة، أو روايات غير موثقة، وإنما ما فى الكتاب من علوم ومعارف يمثل خلاصة تجارب أبى الحسن الماوردى وهى تجارب لا تنفصل عن حركة الحياة والمجتمع، وتركز على الإصلاح الدينى، وتجديد آليات الخطاب، وتهذيب النفس والسلوك الاجتماعى والتأسيس لثقافة السلام بين طوائف الأمة وكأنى بالكاتب الأديب مصطفى صادق الرافعى حين أشاد بكتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" كان يشيد بكل جهد معرفيٍّ دقيق، وبكل كتاب جليل القَدْر، متسع الآفاق، وكلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة، وفى مقدمة هذه الجهود الباسقة كتاب "أدب الدنيا والدين" وكأن الرافعى كان يصف هذا الكتاب حين قال:

"إنه لابد لمن ينظر فى كتابنا من إطالة الفكر والتأمل، فإن ذلك يُحْدث له رويّة، وتنشئ له الروية أسبابًا إلى الخواطر، وتفتح عليه الخواطر أبوابًا من النظر، ويهديه النظر إلى الاستنباط والاستخراج، فإن وقع دون هذه الغاية فحظه من القراء حيث يقع، وإن بلغها فهناك مداخل الحجج ومخارجها، وتصاريف الأدلة ومدارجها، ثم الإفضاء به إلى مذاهب الحكمة على ما اشْتهى؛ ثم الانتهاء به حيث نرى كل حكيم قد انتهى"(١).

والمنهج التجديدى والإصلاحى... يتجلى فى عنوان الكتاب "أدب الدنيا والدين"

فالأدب المقصود هنا ليس الأدب بمعناه الجمالى الخاص بالفنون الإبداعية الأدبية، ولكنه هنا يعنى "المعرفة النظرية والعملية اللازمة للتصرف فى المواقف والمناسبات المختلفة؛ وإضافة كلمة أدب بكل إشعاعاتها إلى "الدنيا والدين" يضفى على موضوع الكتاب سعة وشمولاً وآفاقًا معرفية وسلوكية تتضمن كل آداب الدنيا وآداب الدين، فالأدب فى رؤية "الماوردي" كما جاء فى مقدمة الكتاب – يمثل معرفة وثقافة وخبرة حياتية عامة شاملة والمكلفون بتحصيلها هم الناس جميعًا فى كل زمان ومكان، ليكون بمقدورهم أن يحسنوا التصرف فى أمور دينهم ودُنياهم وينبه "الماوردي" فى مقدمته إلى منهجه وقيمة كتابه، ومصادر فكره، وآليات خطابه، فيقول:

"أعظم الأمور خطرًا وقدرًا، وأعمها نفعًا ورفدًا، ما استقام به الدين والدنيا، وانتظم به صلاح الآخرة والأولى، لأن باستقامة الدين تصح العبادة، وبصلاح الدنيا تتم السعادة، ثم يتابع الإمام

(١) انظر: تاريخ آداب العرب للرافعى " الجزء الثانى " ص ٢٥ .

"الماوردي" توضيح معالم منْهجه قائلاً: "وقدْ توخيت بهذا الكتاب الإشارة إلى آدابهما أى الدنيا والدين، ونفصل ما أجمْل من أحوالهما على أعدْل الأمرين من إيجاز وبسط؛ أجمع فيه تحقيق الفقهاء، وترقيق الأدباء، فلا ينْبو عن فهم، ولا تدق فى وهم.

ولنتأمل هذا المنهج الوسطى المتوازن المعتدل فى الجمع بين تحقيق الفقهاء أى التثبت والبرهنة والدقة العلمية، وحتى لا تظل المعرفة جافة غير مُرغبة حرص هذا الإمام الداعية على الجمع بين تحقيق الفقهاء، وترقيق الأدباء، أى تقديم الحقائق العلمية فى أسلوب عَذْب شائق، وكما يقول محقق الكتاب د/ مصطفى السقا: " إفادة المعانى بألفاظ عذبة متخيرة، لا يخالطها لبْس أو غموض".

ويقدم "الماوردي" مصادر استدلاله على ما يقدم من رؤى فكرية مستنيرة تؤثر الترغيب وتنفر من الترهيب، وهذا النهج فيه إيثار وتأكيد لثقافة الوئام والسلام، ونبذ لثقافة العنف والتطرف والتكفير والإرهاب، ولذلك يصف ما يقدمه من فكرٍ واضح عميق بأنه لا ينبو عن فهم، ولا يدق فى وهم، أى لا يغمض ولا يخفى، ولا يقود للبس، والتهويم والظنون.

ومصادر هذا الفكر الواضح الذى يُجلى آداب الدنيا وآداب الدين تتجلى فى قول "الماوردي" حيث يعرض معالم هذا المنهج ويقدمه مستشهدًا من كتاب الله جلً اسمه بما يقتضيه، ومن سنن رسول الله بما يضاهيه، ثم متبعًا ذلك – كما يقول – بأمثال الحكماء، وآداب البلغاء، وأقوال الشعراء، ويعلل هذا التنوع فى مصادر الاستدلال، وهذا الحرص على الترغيب فى التفاعل والتلقى الجمالى لكل ما يقال، وذلك يتحقق؛ لأن القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة، وتسأم من الفن الواحد، وقد قال على ابن أبى طالب ﷺ: إن القلوب تملُّ كما تمل الأبدان، فاهد إليها طرائف الحكماء".

ويقول الإمام "محمد متولى الشعراوي:" رفهوا جفاء الموعظة بنعومة الأداء، والنصح ثقيل فلا ترسله جبلاً، ولا تجعله جدلاً"(١).

وحينما نتأمل منهج الإمام "الماوردي" فى تقسيمه الكتاب إلى أبواب متنوعة ولكنها تُمثل شبكة واحدة من الرؤى المتكاتفة التى تعد أنموذجًا لمعالم تجديد الخطاب الدينى فى ضوء الفكر المتوازن المعتدل الذى يسعى إلى محاربة العنف والتطرف ويرغب فى نشر ثقافة السلام، والدعوة إلى الله

(١) من حوار أجريته مع الإمام: الشعراوى بمنزلة العامل عام ١٩٩٧م، ونشر هذا الحوار المطول بمجلة الأدب الإسلامى" وهو منشور بكتاب " ديوان الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى جمع ودراسة" بقلم د/ صابر عبد الدايم .

بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، وأبواب الكتاب تتوالى مرتبة على النسق التالى فى تدرج منطقى منهجى صائب:

أولاً: فى فضل العقل وذم الهوى.

ثانيًا: فى أدب العلم.

ثالثًا: فى أدب الدين.

رابعًا: فى أدب الدنيا.

خامساً: فى أدب النفس، وهذا الباب يتضمن وحده ثلث الكتاب تقريبًا.

وهذا الترتيب فى موضوعات الكتاب وقضاياه يكشف عن طبيعة عقلية الإمام "الماوردي" وقدرته على الإقناع، ووعيه بترابط القضايا ترابطًا عضويًا، لأنها كلها لبنات فى بناء متماسك، قوامه إصلاح الإنسان ذاته، وتصحيح موقفه من الدين، وتهذيب سلوكه دنيويًّا، ومواكبته للتقدم الحضاري، اجتماعيًّا وسياسيًّا، واقتصاديًّا، وآية ذلك أنه بدأ الباب الأول بالإشادة بفضل العقل، لأن العقل أساس تفوق الإنسان، وسرّ تكريمه وتقدمه وأفضليته، وبغير العقل لن يدرك أدب الدنيا والدين، ولا قيمة للعلم، ولن يعى دور الملكات النفسية المبدعة، ولن يتعرف على خصائصها المائزة، ولن يدرك وسائل إصلاح الدنيا، ولا كيف تبنى الحضارات، وتكتشف النظريات، وتتفوق الأمم، وتُشَيَّدُ الأمجاد، فالعقل أساس الفضائل، وينبوع الآداب، وقد جعله الله للدين أصلاً، وللدنيا عمادًا – كما يقول الإمام الماوردي: فأوجب التكاليف بكماله، وجعل الدنيا مديرة بأحكامه وألطف به بين خلقه، مع اختلاف هممهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم.

ويوثق "الماوردي" هذا التصوير الدقيق لوظيفة العقل بشاهدين مقنعين أحدهما لرسول الله ﷺ، وثانيهما من أقوال الفاروق عمر بن الخطاب؛ فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: "ما اكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه إلى هدى، أو يردّه عن ردى".

وقال عمر بن الخطاب ﷺ : "أصل الرجل عَقْلُه، وحسبُهُ دينُه، ومروءتُه خلُقه[1].

وإن للعقل فى الإسلام دورًا لا يفتر فى توجيه الإنسان إلى المسارات الصحيحة فى حياته، ولذلك كان التكليف فى الإسلام مرتبطًا بالعقل السليم، والتفكير الرشيد، يقول الإمام محمد عبده: إننى لو أردت أن أسرد جميع الآيات التى تدعو إلى النظر فى آيات الكون لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه.

(١) أدب الدنيا والدين: ص ٤٣ .

وفى كتاب " الإسلام دين العلم والمدنية " يوضح الإمام محمد عبده أصول الفكر الإسلامية وهى تتكئ فى مجموعها على احتواء العقل، وأهمية التفكير فى ضوء الالتزام بالثوابت والأصول التى أرساها الإمام محمد عبده هى:

١ــ النظر العقلى لتحصيل الإيمان.

٢ــ تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض.

٣ــ البعد عن التكفير.

٤ــ الاعتبار بسنن الله فى الخلق.

٥ــ حماية الدعوة لمنع الفتنة.

٦ــ عدم التصادم مع المخالفين فى العقيدة.

٧ــ الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة[١].

(١) انظر الإسلام دين العلم والمدينة ــ الشيخ محمد عبده .

المحور الرابع

قيمة العقل ودوره فى التفكير الإصلاحى ونشر ثقافة السلام

وحين نتأمل رؤية الإمام "الماوردي" للعقل ندرك أنه قد سبق عصره، فى تحليله لدور العقل فى التفكير الإصلاحى ونشر ثقافة السلام، وقد أثر فيمن أتى بعده من العلماء فى العصر الحديث مثل الإمام محمد عبده وغيره من القادة الدينيين المستنيرين المفكرين فى إصلاح الدنيا فى ضوء أصول الدين.

وثقافة "الماوردي" الفلسفية والمنطقية قادته إلى تقسيم العقل إلى قسمين، ومناقشة وتعريفات العقل عند المتكلمين والفلاسفة، ورَفض بعض التعريفات، يقول:

قد ينقسم العقل إلى قسمين (غريزى ومكتسب).

فالعقل الغريزى – كما يروى الماوردى هو العقل الحقيقي، وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوزه إلى زيادة، ولا يقصر عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزى وهو نهاية المعرفة، وصحة السياسة، وإصابة الفكرة، وليس له حدّ، لأنه ينمو إذا استعمل، وينقص إن أهمل.

ولنتأمل مدى تقدير "الماوردي" للعقل المكتسب الذى غذته الثقافة، واتسعت آفاقه المعرفية – فهو "نهاية المعرفة، وصحة السياسة، وإصابة الفكرة، ومن ثم لا يُقيِّد العقل هذا العالم الجليل حيث يقول: "وليس لهذا حدّ – لأنه ينمو إذا استعمل، وينقص إذا أهمل.

الدعوة إلى مشاركة الشباب فى توجيه دفَّة الأمور والمسئولية.

وفى سياق توضيح العوامل التى تثرى العقل المكتسب، وفى مقدمتها، عمق التجارب، وحنكة الشيوخ – يتبنى "الماوردي" دعوة تقدمية حضارية مستقبلية لها أثرها فى وقتنا المعاصر، وأحداث هذه الأيام، وإصلاح المجتمع، ونشر ثقافة السلام، وتواصل الأجيال؛ وهى الدعوة إلى مشاركة الشباب فى توجيه دفة الأمور فى المجتمع وسائر شئون البلاد، حيث يرى أن من عوامل نمو العقل المكتسب "فرط الذكاء، وحسن الفطنة، وجودة الحدْس، كما جاء فى روايات "محقق الكتاب" أى "حدْس الشباب"، وقَدْ قالت العرب: عليكم بمشاورة الشباب؛ فإنهم ينتجون رأيًا لم ينله طول القدم، ولا استوْلت عليه رطوبة الهرم.

ومن سمات تفوق العقل المكتسب التى فصَّل القول فيها الماوردى سرعة الخاطر؛ حيث يقول: "وليس لمن منح جودة القريحة، وسرعة الخاطر عجز عن صواب وإن أعضل: أى صعب وأشكل عليه.

ومن دلائل سرعة الخاطر وحضور البديهة القدرة على الإقناع مع الإيجاز والإفهام؛ ومن ذلك إجابة على بن أبى طالب حينما سئل: كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم؟ فقال: كما يرزقهم على كثرة عددهم، وقيل لعبد الله بن عباس: أين تذهب الأرواح إذا فارقت الأجساد؟؟ فقال ابن عباس: أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان؟

ويعلق الماوردى على إجابتى الإمام على وحبر الأمة ابن عباس اللذين استعانا بالعقل فى إقناع المجادلين، الذين يريدون إثارة الشكوك والشبه حول قدرة الله تعالى، ولم يتهمهم هذان الإمامان بالكفر – والجحود ولكنهما جادلوهما بالحكمة والإقناع العقلى بلا صدام، ولا تطرف، ولا تكفير.

يقول الماوردى: وهذان الجوابان جوابا إسكات تضمَّنا دليلى إذْعان، وحجتى قهر(١).

(١) انظر: هذه القضية بالتفصيل فى الباب الأول من كتاب " أدب الدنيا والدين" ، (فى فصل العقل وذم الهوى) .

المحور الخامس

سمات وخصائص أدب العلم وفضل العلماء

إن الإمام الماوردى فى سياق توضيح وتحليل سمات وخصائص أدب العلم وفضل العلماء.. يؤكد على شرف العلم وفضله.. وهذا الباب " أدب العلم " وثيق الصلة بالباب الأول حيث يرى أن العقل المكتسب ينمو بتحصيل العلم، وكثرة التجارب ويقول الماوردي: اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجدَّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه وأفناه الكاسب،

قال تعالى:﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (١)، ويثير الماوردى كثيرًا من القضايا التى توضح قيمة العلم والعلماء ودورهما فى ازدهار الحضارة، وتقدم الأمم؟ ومن هذه القضايا:

١ــ لا نهاية للعلم، ولا شواطئ له:

يرى الإمام المجدد أن كل العلوم شريفة، ولكل علم منها فضيلة دوره فى إصلاح الأمة، وهذه رؤية حضارية شمولية، لا تحصر العلم فى فرْع واحد، ولكن الماوردي، يفتح الآفاق أمام ابتكارات العلماء، واجتهادات العارفين فى كل المجالات الدينية، والعملية، والتطبيقية، والإبداعية ومن علوم الدنيا والدين.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: " من ظن أن العلم غاية فقد بخس حقه ووصفه فى غير منزلته التى وصف الله بها حيث يقول: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾(٢).

ومصداق ذلك، كما يقول محقق الكتاب: إن الله لا يزال يفيض على عقول العلماء من إلهامه وتسديده ما ملأ الدنيا من المخترعات العلمية فى السلم والحرب، ولا تزال الحياة بفضل العلم تنتقل من حسن إلى حسن، والله يهدى عباده إلى سواء السبيل.

٢ــ أفضل العلوم علوم الدين:

يرى الإمام الماوردى أن العلوم العقلية لا تكفى وحدها لإصلاح المجتمع، ولكن لابد من نشر الوعى الدينى ومن التكوين الثقافى النابع من تكاليف القرآن والسنة النبوية الشريفة، لأن فِقه الدين

---

(١) الزمر:٩ .

(٢) الأسراء:٨٥ .

وفهم قضاياه من أقوى العوامل فى الرقى بالعقل، وصواب الأحكام، وتقويم السلوك، وإصلاح المجتمعات مع العناية بعلوم الدنيا العقلية والتجريبية(١).

ومما يؤكد ويفسر العقلية الحضارية، والفكر الوسطى المعتدل المتجدد للإمام "أبى الحسن الماوردى دعوتُه إلى إتقان العلوم المتنوعة، وإجادتها حسب التخصص الدقيق لكل عالم، وقد استشهد بكلام الإمام الشافعَّى فى هذا السياق حيث برهن على أن علوم الدنيا تساعد على فهم علوم الدين ولا تصادم بينهما – كما يدعى المغرضون فى العصر الحديث – وينادون بعزلة العلوم الدينية؛ لأنها بعيدة عن ميادين الحياة ومتطلبات السوق، وبئس ما يدَّعون.

يقول "الماوردي" وقد يتعلق بالدين علوم، وقد بين الشافعى رحمه الله فضيلة كل واحد منها، فقال: "من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه نَبل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، أى قوى وحسن، ومن تعلم اللغة رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمُهُ".

وقد روى أبو الدرداء أن النبى ﷺ قال: "العلماء ورثة الأنبياء، لأن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم".

وروى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال: "للأنبياء على العلماء فضل درجتين، وللعلماء على الشهداء فضل درجة".

٣ــ التدرج فى طلب العلوم، وأسباب التقصير فى طلب العلم:

وهذه الظاهرة يوليها الإمام الماوردى اهتماما بالغا، وينبه إلى ضرورة إدراك ما بين العلوم من صلات وتداخل، وأنها شبكة من المعلومات والمعارف لا تتصادم، ولكنها تتآلف، وتتكامل لتسعد الإنسان، وتجّمل المكان، وتصلح الزمان، فى كل وقت وآن، يقول: واعلم أن للعلوم أوائل تؤدى إلى أواخرها، ومداخل تفضى إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها، لينتهى إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضى إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدْخل، فلا يدرك الآخر، ولا يعرف الحقيقة، لأن البناء على غير أسس لا يبنى، والثمر من غير غرس لا يُجْنى"

وهذا منهج علمى تربوى سديد، فيه تنظيم للتفكير، وتأسيس للمقدمات والمداخل الصحيحة التى تفضى إلى نتائج قويمة تفتح أبوابًا للنظر، وتقود العقل للاستكشاف والابتكار، وتنأى عن التشدد والتطرف الفكرى، والتعصب المذهبى المقيت، وهذا المنهج السديد يقود إلى تلافى أسباب التقصير

(١) السابق: ص ١٢٢– ص٧١ .

فى طلب العلم التى قال عنها "الماوردي" إنها أسباب فاسدة، ودواعٍ واهية – وكشف عن بعض ملامحها – فقال: ومنها: أى من أسباب التقصير فى طلب العلم:

١ــ أن يكون فى النفس أغراض تختص بنوع من العلم، فيدعوه الغرض إلى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته، كرجل يؤثر القضاء، ويتصدى للحكم، فيقصد من علم الفقه إلى أدب القاضي، وما يتعلق به من الدعوى والبينات، ويترك بقية فروع العلم كسلاً وتهاونا، ولو راجع هذا العالم نفسه لعلم أن ما ترك أهم مما أدرك!!!

لأن بعض العلم مرتبط ببعض، ولكل باب منه تعلق بما قبله.

وهذا منهج تكاملى صائب، ورؤية علمية ثاقبة تتسم بالإحاطة والشمول، تقاوم نزوع كثير من طالبى العلم فى عصرنا الراهن إلى وهم التخصص "حيث يركز أهل كل تخصص على فرع واحد فى تخصصهم، محتجين بأن هذا تخصص دقيق وهو فى الحقيقة برهان الكسل، وعدم التثبت والإحاطة، وعدم التدقيق والتحقيق.

٢ــ ومن أسباب التقصير فى طلب العلم – التى وضحها "الماوردي" أن يقع طالب العلم فى شرك الرياء، وأن يحب الاشتهار بالعلم، إما لتكسب أو لتجمل، فيقصد من العلم ما اشتهر من مسائل الجدل، وطريق النظر، ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه، وهذا الصنيع ليس فيه إخلاص للعلم، ولا رغبة فى تقدم الأمة، ويرى "الماوردي" أن هؤلاء المرائين المجادلين إذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلَّت أفهامهم، حتى إنهم ليخطئون فى الجواب خبط عشواء، فلا يظهر لهم صواب ولا يتقرر لهم جواب، وقد جهلوا من المذاهب ما يعلمه المبتدئ، ويتداوله الناشئ، فهم دائمًا فى لغط مضل، أو غلط مُذِل"

المحور السادس

أهم القضايا التربوية وأثرها فى إبعاد الشباب عن الفكر المتطرف والسلوك الإرهابى

وفى هذا السياق ينبه "الماوردي" إلى قضية تربوية اجتماعية وهى: "ضرورة التعلم فى الصغر، والتدرج فى طلب العلوم".

ويرى أن من أسباب التقصير فى العلم أن يغفل طالب العلم عن التعلم فى الصغر ثم يشتغل به فى الكبر، فيستحيى أن يبتدئ بما يبتدئ به الصغير، ويستنكر أن يساويه الحدث الغرير، فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها، ويهتم بحواشيها وأكنافها، وهذا النهج المقلوب يشهد بفساد التصور، وينطق باختلال هذا التخيل، ويستشهد الماوردى بأحاديث كثيرة، ولكنها غير معتمدة على سند، ولا يقوم بتخريجها، ولا يشير إلى راويها الأعلى، ولا إلى مصدرها فى كتب السنة ومن القضايا التى أشار إليها "الماوردي" وحلل مسائلها وإشكالاتها.

أولاً: خفاء الألفاظ وغرابتها، ويعلل أسباب غرابة الألفاظ وخفائها على طالب العلم تعليلاً منطقيًا، ويرى أن سبب غرابة الألفاظ يتفرع إلى ثلاثة أقسام حسب التصور الآتي، إما أن يكون هذا الخفاء والغموض لعلة فى الكلام المترجم منه، وإمّا أن يكون لعلة فى المعنى المستودع فيها، وإما أن يكون لعلة فى السامع والمستخرج، وهذه التقسيمات تثير قضية التلقى وكيفية قراءة النصوص، وآليات تأويل الخطاب بكل أنواعه.

ثانيًا: يشير "الماوردي" إلى قضية "الرمز" فى الكلام، وكذلك "الألغاز والأحاجى"، وكذلك يلقى الضوء التحليلى المنطقى على أسباب غموض المعاني، ويثير قضايا تاريخية لغوية، ولكنه لا يحسم الموقف، ولا يأتى بأدلة دامغة أو مقنعة، ومن هذه القضايا – إشارته إلى أول من كتب الخط، وأول من كتب بالعربية.

ويقدم "الماوردي" ثمانية أوجه تمثل أسبابًا مانعة من قراءة الخط، وهى أسباب تدل على عمق خبرته فى مجال الخط العربي، ورسومه وأشكاله، وهذه الأسباب هى:

١ــ إسقاطه ألفاظًا من أثناء الكلام، يصير الباقى منها منبوذًا، لا يعرف استخراجه، ولا يفهم معناه، وهذا يكون إما من سهو الكاتب، أو من فساد نقله.

٢ــ زيادة ألفاظ فى أثناء الكلام، يشكل بها معرفة الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد، فيصير الكل مشكلاً، وهذا لا يكاد يوجد كثيرًا.

٣ــ إسقاط حروف من أثناء الكلمة تمنع من استخراجها على وجه الصحة.

٤ــ زيادة حروف فى أثناء الكلمة، يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها.

٥ــ وصل الحروف المفصولة، وفصل الحروف الموصولة، فيدعو ذلك إلى الإِشكال؛ لأن الكلمة ينبه عليها وصل حروفها، ويمنع فصلها من مشاركة غيرها.

٦ــ تغير الحروف عن أشكالها، وإبدالها بأغيارها، حتى يكتب الحاء على شكل الياء، والصاد على شكل الراء، وهذا يكون فى رموز التراجم، ولا يوقف عليه إلا بالمواضعة، إلا لمن قد زاد فيه الذكاء، فيقدر على استخراج المعَّمى "أى اللغز" أو الرمز.

٧ــ ضعف الخط عن تقويم الحروف على الأشكال الصحيحة، وإثباتها على الأوصاف الحقيقية حتى لا تكاد الحروف تمتاز عن أغيارها، حتى تصير العين الموصولة كالفاء، والمفصولة كالحاء، وهذا يكون من رداءة الخط وضعف اليد، وقيل: إن الخط الحَسَن ليزيد الحق وضوحًا.

٨ ــ إغفال النقط والأشكال التى تتميز بها الحروف المتشابهة، وهذا أيسر أمرًا، وأخف حالاً[١].

وهذه الأوجه تلزم محقق المحفوظات أن يكون بصيرًا، بها قادرًا على إصلاحها، ولابد أن تتوفر فى محقق التراث شروط تعينه على القراءة والتحقق من النص، وهى:

١ــــ أن يكون عارفًا باللغة العربية؛ ألفاظها وأساليبها معرفة واعية.

٢ــ أن يكون على علم بأنواع الخطوط العربية وأطوارها التاريخية، وأن يكون ذا ثقافة عامة ومتخصصة فى العلم الذى تدور فى فلكه مادة المخطوط.

ومن القضايا التى أثارها الماوردى فى ختام رصده لمسائل العلم وأفضليته، الشروط التى يتوفر بها علم الطالب[٢] تؤدى إلى التكوين العلمى الدقيق النافع للمجتمع وهذه الشروط هى:

١ــ العقل الذى يدرك به حقائق الأمور.

٢ــ الفطنة التى يتصور بها غوامض العلوم.

٣ــ الذكاء الذى يستظهر به حفظ ما تصوره، وفهم ما عمله.

٤ــ الرغبة والمحبة التى ترغبه فى طلب العلم.

٥ــ الاكتفاء واليسار وعدم الفاقة.

٦ــ الفراغ؛ أى التفرغ لطلب العلم.

٧ــ عدم القواطع المذهلة التى لا تصرفه عن طلب العلم، أو تزهده فيه.

٨ــ طول العمر واتساع المدة.

---

(١) السابق: ص٩٧-٩٨ .

(٢) انظر: كتاب تحقيق التراث، ص ٣٧، د/ عبد الهادى الفضلى .

٩ــ الظفر بعالم سمح بعلمه، متأن فى تعليمه.

وهذه الشروط التسعة تعد قواعد تأسيسية تمكن طلاب العلم من الإجادة والإتقان، والابتكار والاختراع والانشغال، بما يفيد الناس فى حياتهم، وبما يدفع مسيرة الأمة إلى التقدم العلمى فى جميع الميادين وإلى نبذ كل أشكال التطرف والعنف، ونشر ثقافة السلام والوئام والانتماء، ويؤكد الماوردى هذه النتائج القويمة، والثمار العظيمة فيقول:

" فإذا استكمل – أى طالب العلم – هذه الشروط التسعة فهو أسعد طالب، وأنجح متعلم، وقد قال "الإسكندر" يحتاج طالب العلم إلى أربع: "مدة، وجدة، وقريحة، وشهوة، وتمامها الخامسة: معلم ناصح".

وقد روى معاذ عن النبى ﷺ أنه قال: "ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا فى طلب العلم، وقد روت عائشة ﷺ لنبى الله ﷺ أنه قال: "من وقر عالمًا فقد وقر ربّه".

ويؤكد الماوردى على منهج الترغيب فى العلم، وعلى الحوار بالتى هى أحسن – حيث يرى أن من أدب العلماء: "أن لا يمنعوا طالبا، ولا ينفروا راغبًا، ولا يؤذوا متعلمًا، لما فى ذلك من قطع الرغبة فيهم، والزهد فيما لديهم، واستمرار ذلك مقضى إلى انقراض العلم بانقراضهم".

ويستشهد على ذلك بحديث للمصطفى ﷺ حيث يقول: "فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: " ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى، ولا يؤيسهم من روح الله، ولا يدع القرآن رغبة إلى ما سواه، إلا لخير فى عباده ليس فيها نفقة ولا علم ليس فيه تفهم، ولا قراءة ليس فيها تدبر"

وبعـــد ،،

فالإمام المجدد "أبو الحسن الماورديّ" أنموذج للقائد الدينى والرائد الفكرى الإسلامى الذى يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويغرس مبادئ السلام فى عقول الأمة ويرفض ثقافة العنف والتطرف؛ فهو الإمام الجليل القدر، الرفيع المقدار والشأن، قد أتاه الله قلبًا مستقيمًا، وتجربة مكنته من إدراك العصر، فقد ركب لجته، وعلا فوق قمته فبين الطريق للإصلاح، وقدَّم للأمة كلها معالم "آداب الدنيا ومقومات أدب الدين"